التـــذوق الأدبى

للاستاذ محمود عبد العزيز محرم

تقرأ قصيدة من الشعر أو كلمة من النثر فتعجب بها وتترك فى نفسك أثرا يختلف من حين إلى حين شدة وضعفا . وما دام الأدب تعبيراً عن خوالج النفس ، تعبيراً عاطفياً ، فإنه لا بد أن يؤثر فى نفس القارىء أو المستمع ، تأثيراً لا نقول إنه هو ما فى نفس الكاتب ، بل يكاد يكون هو ما فى نفس الكاتب. والأدب ككل فن من الفنون الجميلة ، إن لم يتحدث إلى النفس بمنطقها الذى قد يتفق ومنطق العقل وقد يختلفان ، فإنه يصبح شيئاً مرذولا ، ونتاجاً ثقيلا ، ليس أدبياً صرفا ولا عقلياً خالصاً .

فالفنون لا تخاطب العقل ولكنها تخاطب النفس. ومنطق النفس يصعب وصفه وتحديده ، غير أنه فى كثير من الأحيان مزاج يصعب فصل عناصره الأولى من المنطق العقلى والمنطق العاطفى .

وإذا كانت العاطفة تختلف من إنسان إلى إنسان ، شدة وضعفا ، تفاؤلا وتشاؤما ، نبلا أو سفاهة ؛ وإذا كان أسلوب التفكير لدى إنسان غيره لدى إنسان آخر ، فإن التأثر الأدبى والفنى يختلف من إنسان إلى إنسان تبعا لاختلاف العواطف ومكوناتها وتبعا لاختلاف أسلوب التفكير .

فالأدب ليس وقعه واحداً فى النفس الإنسانية ، بل يختلف شدة وضعفا ، عمقا وسطحية ، استغراقا وهامشية ، من إنسان إلى إنسان . وهو فى النفس الواحدة يختلف من وقت إلى آخر ، لأن النفس يتحكم فى تأثرها وحكمها على الآثار والأشخاص

يهون عليه داعماً وقع المصيبة وهول الكارثة أنه كان مع بنى قومه الطليعة التى قضى عليها العدو المتربص فتنبه الجيش إلى الخطر ليأخذ الأهبة ، واستعد لمناهضة العدو القادر . كانت هذه المعانى تبعث فى نفسه طمأنينة السماء ، لأن الفرد إذا مات فى سبيل المجموع كان شهيدا ، قد أدى واجبه نحو أمته ووطنه ، ولا عليه بعد ذلك ، إن ظل كالجندى المجهول لا يعرف الناس عنه شيئا ، وإن لاقى فى سبيل أداء هذا الواجب مالا تقوى رواسخ الجبال على احتماله والصبر عليه .

سوف يموت جيل العبيد الحاضر الذى اختار الحياة فى معركة الشرف والدفاع عن كرامة الدين والعرض والمجد ، حين تحدته قطعان من كلاب البشرية . فأقبل إليه الموت يحمل فى يديه عار الأبد ، وقيود الذل ، والمهانة والازدراء والحقارة بين الشعوب الكريمة ...

وسوف تندفع الأجيال الحرة المقبلة من أبناء العرب ، من وراء الغيب ، وقد حملت فى أرواحها بطولة المسلمين وأمجاد الفاتحين وعزة المؤمنين ، تطلب الموت فى سبيل الله لتنهار الدنيا بما فيها من قنابل ذرية تحت أقدامها ، وما يذل إنسان يطلب الموت ...

ومشت ساعات الزمن ، وانطلق الناس إلى غاياتهم ، ومرت أيام العيد الثلاثة ، فما أحس بالمعانى الإنسانية التى تفرضها روح الإسلام على المسلم نحو أخيه المسلم ، وما أحس بوجوده أقرب البيوت إليه وبينهم من يتزيا بزى علماء المسلمين .

وكان من سوء حظه أن تحدق به قصور المترفين ، ولو كانت تحتاطه بيوت الفقراء لعروه بحنانهم ورغائبهم ، لأنهم يمرون بالآلام التى يمر بها . وتهب عليهم رياح البؤس والحرمان من صحراء الحياة كما تهب عليه .

ترى لماذا اختار الله رسله وأنبياءه من الطبقة التى صهرها العذاب ؟ ولماذا قدر أن يذوق المصلحون والمبشرون والفنانون كؤوس البؤس منوعة من يد الحياة ؟

إن الذين يولدون على الذهب ، ويشبون بين القصور فى أحضان الترف ، ويجلسون فى المقاعد الأمامية فى مسرح الحياة ، لا يعرفون عن الحياة شيئا .

أما الذين يعيشون فى جحيم الحياة ، ويبصرون صور العذاب ، ويشربون كؤوس البؤس ، هم الذين يحسون آلام الناس ، وهم الأقلام الحساسة التى تنطبع عليها صور الرحمة والحنان بالناس جميعا ...

ومن يدرى؟ فلعل يد القدر وهى تعطى الفنان والسيارات والقصور — تأخذ من تلك النفوس المعانى الإنسانية والرقة ونبل الشعور .

بغداد

على محمد سرطاوى

الظروف الطارئة، والآثار العارضة، والمواقف الجديدة.

فالتأثر الأدبي يختلف من نفس إلى نفس وفي النفس الواحدة يختلف من وقت إلى آخر. ولذلك فإنه لا يكون واحدا في النفوس جميعاً، ولن يكون واحداً في النفس الواحدة، بل إنه إن كان واحدا في جوهره، فإنه يختلف في حواشيه، وصوره، وما يستتبع من آثار، من وقت إلى آخر.

وهذا هو الخلود في الأدب والفن، فإنه لا يبلى، بل يتجدد دائما في الإصباح والإمساء. وكل إنسان يتذوقه بأسلوبه الخاص؛ أسلوبه الماطفي والمنطقي. هو شيء واحد نؤمن به جميعاً، ولكنى أومن به في صورة غير الصـــورة التي تراها أنت. أما جوهر العلم وحقيقته فإنا نؤمن بها جميعاً في جوهر واحد وصورة واحدة.

العلم والفن يتكلمان عن الجواهر، يتكلمان عن الإنسانية الصافية الخالصة، في آمالها وطموحها وماضيها وحقائقها التي لا تتغير. هما يخدمان الإنسان، كل بأسلوبه المفيد وطريقته الفذة التي لا يقصر فيها ولا يجاوز طوره أيضاً. فإذا كانت حقيقة الأدب واحدة وصورته مختلفة، فان حقيقة العلم واحدة وصورته واحدة أيضاً.

ومن هنا نجد العلم لا يختلف من إنسان إلى إنسان ولا من وقت إلى آخر. ومهما تقلبت الظروف بالإنسان فان الحقيقة العلمية لا تتغير زيادة ولا نقصا. بخلاف الحقيقة الأدبية فإنها تختلف من إنسان إلى إنسان، ومن وقت إلى آخر، وتستتبع من العواطف والصور والأفكار ما يتغير من زمان إلى زمان.

والانسان ليس هذا الذي تجده أمامك في هذه الساعة. وأنت تخطىء في تقويم الإنسان حين لا تراه إلا هذا الحاضر بين يديك، المتحدث إليك، الناقل عنك والذي تنقل عنه. الإنسان ليس ابن اللحظة الراهنة، وليس ابن الماضي وحده، إنما هو ابن اللحظة الراهنة وابن الماضي وابن المستقبل أيضاً. هو ابن آماله وطموحه، وابن واقعه الذي هو، فيه وابن ماضيه الذي أصبح شيئاً يؤسف عليه أو يؤسف منه.

وماضي الأفراد مختلف من فرد إلى فرد. ومستقبل الأفراد مختلف من فرد إلى فرد. وحاضر الأفراد مختلف من فرد إلى فرد.

ولذا تجد أن الإنسان منا في حاجة إلى الخيال الواسع، والبصيرة المنيرة، والحساسية النافذة، حتى يقوم زميله وأخاه، وحتى يحكم عليه حكما صوابا أو مقاربا إلى الصواب.

أنا ثقافتي أزهرية؛ فقد تخرجت في الأزهر، وتخرجت في معهد التربية. أما جاري فثقافته جامعية، تخرج في المدرســـة الثانوية، وتخرج في كلية التجارة. وجاري الآخر نشأ فلاحا يبذر البرسيم ويحصد القمح. فنحن مختلفون في نشأتنا، مختلفون في ماضينا، مختلفون فيما يتحكم في حاضرنا، مختلفون فيما ينسج من آمال مستقبلنا، إننا أناس تجمع بيننا أسباب عارضة ليست في قوة الأسباب التي تجعل لكل منا فردية وحدة وشخصية مستقلة.

فالخلاف بين الإنسان والإنسان واسع. خلاف في العاطفة. خلاف في الفكرة. خلاف في الإحساس. خلاف في كيفية هذا الإحساس. خلاف في الحاضر. خلاف في الماضي. ومن غير شك خلاف في المستقبل. خلاف في أسلوب التعامل. خلاف في الفرح والرضى. خلاف في الحزن والبكاء. خلاف في أنفاس الحياة وتسوية البنان.

وهذا المدى الواسع من الخلاف يجعل لكل إنسان شخصية تتمايز عن غيرها من الشخصيات تمايزا ظاهرا. وهذا التمايز الظاهر يجعل لكل منا أسلوبا خاصا في الفهم، والتعامل، والاستجابة لأحداث الحياة الدقيقة والجليلة. وهـذا التمايز نفسه هو الذي تتعلق به آمال الطاقة البشرية في أن يبلغ كل فرد غاية إمكانياته للبذل في سبيل الإنسان.

والتذوق الأدبي يختلف على هذا المدى الواسع. فأنت تقرأ قصيدة فتعجب بها وتذهب نفسك إعجابك وتبهره. ويقرؤها غيرك وقد لا يعجب بها أو قد لا يعجب بها هـذا الإعجاب الذي أعجبته، ثم يذهب يبرر مسلكه تجاه هذه القصيدة. وإن كتب على الناس أن يظلوا مختلفين فمن الحمق أن تذوقهم للروائع الأدبية لا يمكن أن يتفق، بل يظل مختلفاً أوسع الاختلاف وأشده. مختلفاً تبعاً لاختلاف الطفولة، واختلاف موارد الثقافة، واختلاف فلسفة الفرد في الحياة، واختلاف آمال المستقبل، واختلاف

التركيب العضوي الذي يستتبعه في التركيب النفساني من فرد إلى فرد .

فالتذوق الأدبي يختلف من فرد إلى فرد وإن كنا نعلم أن الأدب يتكلم عن الجواهر ، والجواهر لا تتغير — ولكن صورة الجوهر ، والعواطف التي يثيرها ، والآثار التي يستتبعها ، تختلف من إنسان إلى إنسان ، وإن كان الجوهر في ذاته واحدا . فهذا الجوهر الواحد يقبل التشكل فيما يخرجه المقتدرون من أنبياء الفن ، ولكنه لا يقبل التشكل فيما يخرجه الرجال القادرون على البحث والتجريب .

قال ابن الدمينة :

وأنت التي كافتني دلج السرى ... وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التي قطعت قلبي حزازة ... وفرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قوى فكاهم ... يعيد الرضى وانى الصدود كظيم

هذه الأبيات الثلاثة تتكلم عن حقيقة هي ما يلقاه المحب من عنت وإرهاق ، وما يعترضه من عقاب في سبيل حبه هذه الحقيقة جوهر لا يتغير ، ولا بد أن نظهر عليه إن توفرت أسبابه ودواعيه . ولكن ابن الدمينة اختار ألفاظا خاصة ، وصورا خاصة ، وعاطفة خاصة ، أقطع مؤكدا أن شاعرا غيره لا بد أن يحور كل التحوير أو بعض التحوير في هذا المتاع الخاص بابن الدمينة لو أراد أن يظهرنا على ما يلقاه المحب من عنت وإرهاق وما يعترضه من صعاب في سبيل حبه .

ثم أن ابن الدمينة نظم ألفاظه التي اختارها تعبر عما يريد نظما خاصا ، ليؤكد هذه العقاب والمصاعب ، وليرى لنفسه حق استعطاف هذه التي تكلفه العقاب والمصاعب . فأنت ترى أنه بدأ كل بيت بضمير المخاطبة ، واتبع هذا الضمير اسم الموصول المؤنث ، وفي البيتين الأولين أتبع اسم الموصول فعلا مضعف العين — كل هذا ليكرر الإسناد الذي يدل على التأكيد . ثم أنظر في البيت الثاني إلى التمييز الذي استتم به الشطر الأول منه ، وفي البيت الثالث إلى قوله « أحفظت قوى » مضافا إلى الضمير واسم الموصول تجد أن هذا الفعل كالزمردة المحورة التي تكشف لنا عن احتدام قلوب القوم غيظا وكراهية لهذا المحب المظلوم .

وما إخالك إلا قد استجاب حسك لهذه المقابلة السنية بين هذا الذي كاف دلج السرى وجون القطا الجثوم بالجلهتين ، بين هذا المحب الأواب إلى ذكرى الحبيب ودياره وهذه القطا الآمنة الجاثمة في مكمنها الدفيء . ثم لا إخالك أيضا إلا استجاب حسك لهذا القلب الذي أصيب ويصاب كل يوم فهو كليم . وألست ترى صدود القوم وإشاحتهم عن ابن الدمينة كما ألم ينادي قومه أو نجول في أحيائهم ؟ وألست ترى هذا الغيظ الذي ترتسم سيماه على الوجوه وألست ترى هؤلاء القوم المحفظين يصبرون أنفسهم على سفه ابن الدمينة هذا !

كل هذا في عاطفة خاصة . هذه العاطفة الخاصة ليست غاضبة على المحبوب إنما هي عاتبة عليه ، وليست تقابل غيظ القوم بغيظ مثله لأنها واجدة لهم عذرا ، وليست ترى في هذه الآلام إلا نوعا من القربان يتزلف به المحب إلى من أحب لعله يرضى !

وهذه الأبيات الثلاثة تنشر لي صورا من ماضي الذي انطوى وما إلى عوده من سبيل ، صورا لا أستطيع أن أعبر عنها في هذه السطور المعجلة — يوم كنت شابا في أول خطوات الشباب أعب من معين الطبيعة أطرافا من النهار وزلفا من الليل ، وأنصت إلى دقات الليل العميق يبارك أبناء الطبيعة الهجود — أرى على صفحة الأفق ابن الدمينة هذا متخذا سمته إلى ديار حبيبته ، وقد ابيض الأفق الشرقي إيذانا بانبلاج الفجر الجديد .

على مثل هذا النحو أتذوق أبيات ابن الدمينة ، فثقافتي لها حظ ، واستجابتي لصورها ومعانيها لها حظ ثان ، وعاطفتي التي لامست عاطفة الشاعر لها حظ ثالث ، وما بعثته في نفسي من صور وإحساسات خاصة بي له حظ رابع ... فأنا قد تذوقت هذه الأبيات بكيفية خاصة نابعة من نشأتي ، وثقافتي ، وما انطبع على صدري من مرائي الطبيعة ، واستعدادي الشخصي لأن أستجيب لهذه العاطفة التي اتخذها الشاعر ثوبا لفكرته . وإني على يقين أن غيري يتذوقها على غير هذا النهج ولو كانت ثقافته كثقافتي ونشأته كنشأتي .

فالتذوق الأدبي ليس من الحق أن توضع له القواعد والحدود .

محمود عبد العزيز محرم
مدرس بالفصول الثانوية بالمنيا